أسلوبية التلقي في قصيدة "النصر للشعب "لأبي القاسم سعد الله

ط.د/ عدون بوعزة

جامعة جيلالي اليابس– سيدي بلعباس

تعددت الاتجاهات النقدية في العصر الحديث وأصبح التطور في مناهج النقد أمر ملحوظ وملموس بكثرة خاصة عند الأوروبيين، وكان علينا نحن العرب أن نلحق بالركب ونرفع من شأن لغتنا لأنها هي أحق اللغات بالتطوير والتجديد، كيف وهي لغة القرآن ؟!

وقد كان من أهم المناهج الغربية في النقد منهج " الأسلوبية " وهو ما سنقوم بالتطرق إليه في هذا البحث ونطبق عليه وقد اخترت هذا الموضوع بالذات لما اتسمت به الأسلوبية في نظرتها الشاملة للنص ودراسته كلا متكاملا من غير تجزئة .

لقد عرف مصطلح الأسلوب قديما عند العرب كما عرف عند غيرهم ، وهو في المعجم العربي يعني: السطر من النخيل وكل طريق ممتد، والأسلوب هو الطريق والمذهب، والجمع أساليب[1]. وقد استخدم علماء العربية هذا اللفظ في دلالات اصطلاحية متعددة ، فقد ذكر ابن قتيبة مصطلح الأسلوب في قوله :"إنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب ". والذي يظهر من سياق كلامهم أنهم لا يستخدمون مصطلح الأسلوب بالمعنى المستخدم الآن وإنما يعنون به الطريقة الخاصة في النظم والسمة المميزة لكلام عن كلام آخر وهذا يفيدنا أن أصل اللفظ وشيء من المعنى كان موجودا عند علمائنا الأوائل قديما .

وقد تطرق عبد القاهر الجرجاني للأسلوب فقال في تعريفه : بأنه " الضرب من النظم والطريق فيه "[2] كما تعرض له حازم القرطاجني وابن خلدون وهذا كله مما يؤكد وجود أصل هذا المصطلح قديما .

أما عن الأسلوب في العصر الحديث فإنه يعرّف بعدة تعريفات نظرا لتعدد الاعتبارات وهي على النحو الآتي[3]:

1-**باعتبار المرسل أو المخاطِب**: هو التعبير الكاشف لنمط التفكير عند صاحبه ولذلك قالوا الأسلوب هو الرجل .

2-**باعتبار المتلقي والمخاطب** : هو سمات النص التي تترك أثرها على المتلقي أيا كان هذا الأثر .

3-**باعتبار الخطاب**: هو مجموعة الظواهر اللغوية المختارة الموظفة المشكلة عدولا، وما يتصل به من إيحاءات ودلالات.

وبالنسبة للأسلوبية عند الغرب فهي كما يقول مؤسسها الأول شارل بالي : علم يعنى بدراسة وقائع التعبير في اللغة المشحونة بالعاطفة المعبرة عن الحساسية .[4] ويقول عبد السلام المسدي عن هذا المصطلح أنه مركب من جذر " أسلوب " ولاحقته "ية" فالأسلوب ذو مدلول إنساني ذاتي واللاحقة تختص بالبعد العلماني العقلي الموضوعي[5].

وعرفها جاكبسون[6]: بأنها بحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا ، وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا[7].

وقد حاول أحد الباحثين أن يجمع هذه التعريفات في تعريف واحد فقال: "هي جملة الصّيغ اللّغوية التي تعمل على إثراء القول وتكثيف الخطاب وما يستتبع ذلك من بسط لذات المتكلم وبيان التأثير على السامع." و من العلماء من قال بأن

"مصطلح"علم الأسلوب" مرادف للأسلوبية "، ومنهم من فرّق فقال بأن "علم الأسلوب يقف عند تحليل النص بناء على مستويات التحليل وصولا إلى علم بأساليبه ".

أما الأسلوبية فهي تتجاوز النص المحلَّل المعلومةُ أساليبُه إلى نقد تلك الأساليب بناءً على منهج من مناهج النقد المعروفة [8]، ولكن الذي يظهر أن الفرق بينهما ضئيل جدا وأنهما يلتقيان في كثير من الجوانب.

مبادئ الأسلوبية و اتجاهاتها : كأي علم من العلوم القائمة بذاتها وضعت الأسلوبية لنفسها مبادئ وإجراءات تقوم عليها والتي نلخصها فيما يلي :

أ– الاختيار: وهو من أهم مبادئ علم الأسلوب لأن المتكلم أمام ثروة لغوية تعبيرية واسعة المساحة بيد أن استعماله لها يكون ضيق المجال فلا يقوى على استهلاكها كلها دفعة واحدة ولا يأخذ كل مؤلف إلا ما يناسب وصف أفكاره وترجمة خواطره[9] وأن الاختيار هو الذي يقوم عليه تحليل الأسلوب عند المبدع ، ويقصد بها العملية التي يقوم بها المبدع عندما يستخدم لفظة من بين العديد من البدائل الموجودة في معجمه فاستخدام هذه اللفظة من بين سائر الألفاظ هو ما يسمى " اختيار" وقد يسمى "استبدال" أي أنه استبدل بالكلمة القريبة منه غيرها لمناسبتها للمقام والموقف[10]. وهذا من شؤون المحلل الأسلوبي الذي يشتغل على المساحة التي توفر جوا نفسيا مناسبا يظهر في الانفعالات والسّلوكات التعبيرية وحقلا خصبا يبرز في الأبنية الأسلوبية والتراكيب اللغوية.[11] وبالتالي فإن الأسلوب اختيار واع يسعى به المؤلف لإنجاز العملية الإبلاغية الخطابية .

ب– ويتصل بهذا المبدأ – الاختيار– شيء آخر هو ما يسمى بـ" محور التوزيع " أو "العلاقات الركنية" ويقصد بها تنظيم وتوزيع الألفاظ المختارة وفق قوانين اللغة وما تسمح به من تصرف، وهذه العملية هي التي يسميها جاكبسون: إسقاط محور الاختيار على محور التوزيع[12].

ت– العدول : ويسمى "الانزياح " L'écart - Deviation أو"الانحراف" كما سماه ابن جني قديما، أو كما سمّاه جاكبسون "خيبة الانتظار"[13]، ولهذا المبدأ أهمية خاصة في علم الأسلوب حتى سماه بعضهم " علم الانحرافات"[14]. والانزياح تحايل يحدث باللغة داخل نظام اللغة حيث يخرق المبدع القواعد ويخرج عن المألوف، كل هذا من أجل تمرير رسالة لافتة لنظر المتلقي. والانزياح أحد الأنماط الثلاثة التي تتحرك فيها الأسلوبية حسب اقتراح فريمان حيث أنه من الممكن تحديد الحقل الذي تتحرك فيه الأسلوبية بالأنماط التالية:

أ– الأسلوب باعتباره انحرافا عن القاعدة.

ب– الأسلوب باعتباره تواترا ، أو نوعا من تكرار أنماط اللغة .

ت– الأسلوب باعتباره استغلالا للإمكانات النحوية .[15]

وهذا المبدأ – العدول – ينطلق من تصنيف اللغة إلى نوعين:[16] لغة مثالية معيارية نمطية متعارف عليها. ولغة إبداعية مخالفة للنمط المعياري السابق.

فالعدول هو: مخالفة النمط المعيار المتعارَف عليه إلى أسلوب جديد غير مألوف عن طريق استغلال إمكانات اللغة وطاقاتها الكامنة . ويتضح في هذا التعبير شرط يضبط هذا العدول حتى لا يخرج عن الحد المقبول وهو أن يكون العدول في حدود ما

تسمح به قواعد اللغة ، وكذلك يجب أن يكون هذا العدول ذا فائدة فليس العدول غاية في ذاته إنما المقصود منه إثارة السامع وحفزه على التقبل[17].

وهي تقوم على مبدأ انزياح اللغة الأسلوبية عن اللغة العادية ويعرف الأسلوب على أنه انزياح عن المعيار المتعارف عليه، فهم يعتقدون أن الأسلوب الجيد هو الذي ينحرف عن اللغة الأصلية وطريقتها الاعتيادية على اختلافهم في مدى هذا الانحراف والانزياح فمنهم من يدعو إلى الخروج عن كل قواعد اللغة وهذا ما طبقه أهل الحداثة في أدبهم، والمعتدل منهم يقول أن الانزياح يكون في حدود قواعد اللغة حيث يكون الإبداع بسلوك طرق جديدة غفل عنها الآخرين لكنها لا تخالف قواعد اللغة أي النحو[18].

ويسميها كوهمين "الانتهاك" حيث أن المبدع يعتمد في إبداعه على اختراق المستوى المثالي في اللغة وانتهاكه.[19]

ولإضاءة مفهومه للانحراف عن السياق يورد ريفاتير مصطلحين هامين وهما :الارتداد والتناص، ويعني بالأول تلك الوقائع الأسلوبية التي سبق للقارئ اكتشاف قيمها ثم لا تلبث أن تعدّل معانيها بأخرى بناء على ما يكتشفه القارئ وهو ماض في قراءته، كما يعني بالتناص ذلك الأثر الذي ينشأ عن تراكم عدد من المسالك الأسلوبية لتحدث قوة تعبيرية لافتة، والتي يعدها مثالا للوعي البالغ باستعمال اللغة.

فعبد السلام المسدي حينما وسم الأسلوب بالعبارة التالية:"الأسلوب هو الاستعمال ذاته، فكأن اللغة مجموعة شحنات معزولة. فالأسلوب هو إدخال بعضها في تفاعل مع البعض الآخر كما لو كان ذلك في مخبر كيماوي"[20]، فالكلمة لوحدها معزولة لا نستطيع الجزم بمدلولها، وتبقى الدلالة المعجمية لها مفتوحة على كل التأويلات، أما حين استخدامها في الجملة والنص فيمكن استبعاد بعض الدلالات والاقتراب من دلالات ممكنة أخرى، أو حصرها في دلالة واحدة لا غير.

ومن ناحية المعنى، فإنه، "يكاد الإجماع ينعقد على أن الانزياح: خروج عن المألوف أو ما يقتضيه الظاهر، أو هو خروج عن المعيار؛ لغرض قصد إليه المتكلم، أو جاء عفو الخاطر، لكنه يخدم النص بصورة أو بأخرى، وبدرجات متفاوته". ويمكن القول باختصار: إن الانحراف هو مقابل المجاز في البلاغة.

الأسلوبية البنيوية (stylistique structurale): الأسلوب عند ريفاتير يبدعه المنشئ ويرجعه المتلقي حين يقدم الكاتب على لفت انتباه المخاطب من خلال رسالة الخطاب[21]، حيث يقوم المتلقي بفك شفرات تلك الرسالة ولذلك يصنف ريفاتير[22] من رواد الأسلوبية البنيوية القائلين بأن الأدب شكل راق من أشكال التواصل، فبمجرد بناء النص الإبداعي يتحرر ليعلن استقلاله عن مؤلفه لتتأسس علاقة أخرى بين النص والقارئ، والأسلوبية البنيوية تتناول في دراستها التراكيب اللغوية والصرفية و تتطلع إلى المعنى. وقد جعل ريفاتير القارئ من اهتماماته الأولى حيث اقترح له تسمية القارئ العمدة (archilecteur) .

ولا شك أن الكتابة الفنية تتطلب من الكاتب أن يفاجئ قارئه من حين لآخر بعبارة تثير انتباهه حتى لا تفتر حماسته بمتابعة القراءة أو يفوته معنى يحرص الكاتب على إبلاغه إياه. وفي هذا تختلف الكتابة الفنية عن الاستعمال العادي للغة فالإنسان في حديثه العادي يستطيع أن يلجأ إلى وسائل كثيرة مصاحبة للكلام كي ينبه سامعه إلى فحوى الرسالة: من استخدام النبر والتعبير بحركات الوجه أو الإشارة باليدين إلى هز ذراع السامع إذا كان المتكلم في حالة انفعالية تدفعه إلى ذلك، وأما إذا تأملنا الكتابة الفنية وجدنا في تعابير اللغة أحيانا ما يشبه هز الذراع، وإذا كانت هذه الحركات والنبرات في لغة الحديث لا تفعل فعلها إلا لكونها

خارجة عن المألوف، فكذلك وسائل اللغة التي يراد بها جذب الانتباه إنما تحدث ذلك بفضل ما فيها من المفاجأة أو الخروج على سياق الكلام العادي، أي بفضل ما فيها من الانحراف.

وهي امتداد لآراء سوسير في التفريق بين "اللغة" و"الكلام" كما تعد امتدادا لمذهب بالي في الأسلوبية التعبيرية الوصفية، فقد طور البنيويون في بعض جوانب النقص عند سابقيهم حيث عايشوا الحركة الأدبية[23] وهنا يكون التحليل الأسلوبي خاضعا لتفسير العمل الفني باعتباره كائنا عضويا شعوريا[24]. و من خلا ل هذا فإن الأسلوبية تكشف عن الخصائص اللغوية التي بفضلها يتحول الخطاب عن سياقه الإخباري العادي إلى وظيفته التأثيرية والجمالية

الأسلوبية والبلاغة : هناك أوجه اتفاق كثيرة بين علم الأسلوب وعلم البلاغة كما توجد أوجه اختلاف، ولعل الوقوف على هذه الفروق يوضح لنا ويجلي مدى العلاقة والاتصال بين علم الأسلوب والبلاغة .

فأما أوجه الاتفاق فهي كما يأتي[25]:

1- أن كلا منهما نشأ منبثقا من علم اللغة وارتبط به .

2- أن مجالهما واحد وهو اللغة والأدب.

3- علم الأسلوب استفاد كثيرا من مباحث البلاغة مثل علم المعاني والمجاز والبديع وما يتصل بالموازنات بين الشعراء وأساليبهم الفردية .

4- كما أنهما يلتقيان في أهم مبدأين في الأسلوبية هما: العدول والاختيار.

5- يرى بعض النقاد أن الأسلوبية وريثة البلاغة وهي أصل لها.

6- تلتقي الأسلوبية مع البلاغة في نظرية النظم ، حيث لا فصل بين الشكل والمضمون كما أن النص لا يتجزأ .

7- البلاغة تقوم على "مراعاة مقتضى الحال" والأسلوبية تعتمد على "الموقف" وواضح ما بين المصطلحين من تقارب .

أما أوجه الاختلاف فهي على النحو الآتي[26]:

1-علم البلاغة علم لغوي قديم أما علم الأسلوب فحديث.

2-البلاغة تدرس مسائلها بعيدا عن الزمن والبيئة أما الأسلوبية فإنها تدرس مسائلها بطريقتين: طريقة أفقية: أي علاقات الظواهر بعضها ببعض في زمن واحد . طريقة رأسية: أي تطور الظاهرة الواحدة على مر العصور.

3- عندما تدرس البلاغة قيمة النص الفنية فإنها تحاول أن تكشف مدى نجاح النص المدروس في تحقيق القيمة المنشودة، وترمي إلى إيجاد الإبداع بوصاياها التقييمية. أما الأسلوبية فإنها تعلل الظاهرة الإبداعية بعد إثبات وجودها وإبراز خواص النص المميزة له.

4- من حيث المادة المدروسة فالبلاغة توقفت عند الجملتين كحد أقصى في دراستها للنصوص، كما أنها تنتقي الشواهد الجيدة وتجزئها. أما الأسلوبية فتنظر إلى الوحدة الجزئية مرتبطة بالنص الكلي وتحلل النص كاملا

5- البلاغة غايتها تعليمية ترتكز على التقويم، أما الأسلوبية فغايتها التشخيص والوصف للظواهر الفنية .

وبعد هذه المقارنة بين البلاغة والأسلوبية يتضح لنا أنه لا تعارض بينهما وأن الأسلوبية استفادت من البلاغة كثيرا بل إن الأسلوبية لم تنهض إلا على أكتاف البلاغة ولكنها تقدمت عليها في مجال علم اللغة الحديث ولو أن هذا التقدم لا يصعب على البلاغة أن تحوزه إذا ما استفادت من مبادئ وإجراءات علم اللغة الحديث وعلم الأسلوب والمناهج الألسنية بعامة .

بل إن البلاغة وبما تملكه من إمكانات علمية ثابتة وقواعد راسخة وما بذله لها علماء البلاغة قديما وحديثا قادرة على خلق نظرية حديثة متطورة تفوق كل النظريات السابقة إذ ما التزمت بأساسها واستفادت من التطور العلمي الحديث ويظهر هذا فيما قدمه عبد القاهر الجرجاني للبلاغة من تطور بنظريته المشهورة التي قفزت بالبلاغة إلى درجات لم تصل إليها اللغات الأخرى إلا في هذا العصر فلو وجدت البلاغة من يكمل المسير الذي سار عليه عبد القاهر لما تأخرت في هذا العصر وبقيت مرمى سهام الحاقدين على العربية وأهلها .

وإن أي علم يتخلف عن مواكبة تطور العلوم وتقدمها فإنه يتقادم ويذبل أمام بهرجة الحديث وإغراءه خاصة إذا وجد من يتبناه من الباحثين والعلماء المتمكنين .

الهوامش:

1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر ،بيروت،ط1 ، 2000م ، مادة (سلب) ص225.

2- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر ،مكتبة الخانجي، القاهرة، 1404هـ، ص469.

3- ينظر، سعد أبو الرضا النقد الأدبي الحديث أسسه الجمالية ومناهجه المعاصرة روية إسلامية، ط2، 1428هـ ص117،

4- محمد اللويمي، في الأسلوب والأسلوبية ، مطابع الحميضي، ط1 ، ص42.

5- عبد السلام المسدي ، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، تونس، 1397هـ.

6- ولد بموسكو سنة 1896م واهتم باللهجات والفولكلور واطلع على أعمال سوسير وأسس النادي الألسني بموسكو وعنه تولدت مدرسة الشكلانيين الروس ، تنقل بين عدد من الدول واستقر أخيرا في أمريكا في جامعة هارفارد وهناك رسخت قدمه في التنظير للألسنية (الأسلوب والأسلوبية، عبد السلام المسدي، ص242)

7- المرجع السابق ص33.

8- يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق ، دار المسيرة ط1، 1427هـ ، ص37.

9- عبد الرحمن بن زورة ، أسلوبية الخطاب الشعري المعاصر ، دار الأمل للطباعة و النشر ، تيزي وزو، 2014 م ، ص 35.

10- ينظر عبد السلام المسدي الأسلوب والأسلوبية ص134، و محمد اللويمي في الأسلوب والأسلوبية، ص26.

11- عبد الرحمن بن زورة ، أسلوبية الخطاب الشعري المعاصر ، ص 35

12- ينظر عبد السلام المسدي ، الأسلوب و الأسلوبية ، ص135.

13- ينظر السابق ص158.و محمد اللويمي، في الأسلوب والأسلوبية ، ص23.

14- شكري عياد ، مدخل إلى علم ألأسلوب ، دار العلوم ، ط1 ، 1402هص37.

15- ينظر : محمد عبد المطلب ، البلاغة والأسلوبية ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط 1984 ، ص 147.

16- محمد اللويمي ، في الأسلوب والأسلوبية ، ،ص23.

17- ينظر السابق ص24.

18- نفسه ،ص46.

19- ينظر محمد عبد المطلب ، البلاغة و الأسلوبية ، ص268.

20- ينظر عبد السلام المسدي ، الأسلوب والاسلوبية ص135.

21- عبد الرحمن بن زورة ، أسلوبية الخطاب الشعري المعاصر ، ص 30

22- ميشال ريفاتير: أستاذ بجامعة كولومبيا ، باحث ألسني ، ناقد أدبي بنيوي من أعماله "الأسلوبية البنيوية " 1971 و"صناعة النص" 1979.

23- محمد اللويمي ، في الأسلوب والأسلوبية ، ص 45.

24- شفيع السيد، الاتجاه الأسلوبي في النقد ، دار الفكر العربي ، ص117.

25- ينظر ، شكري عياد ، مدخل إلى علم الأسلوب ،ص43-49 .و محمد اللويمي، في الأسلوب والأسلوبية ، ص68-70.

26- ينظر السابق نفسه.